

دلائل التداخل النصي في التراث العربي

الأستاذة: هناء حلاسة

قسم الآداب واللغة العربية

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد خيضر - بسكرة - (الجزائر)

ملخص:

كان ميلاد المناهج التحليلية المعاصرة بمثابة تطوّر علمي في مجال الدراسات اللغوية والأدبية، ومن بين هذه المناهج "المنهج اللساني النصي"؛ وهو منهج يتعامل مع النصوص الأدبية تعاملًا لسانيًا؛ أي أنه ينطلق في عملية التحليل من فكرة أساس مفادها أن النص المدروس إنما يحلّل لذاته ومن أجل ذاته، بهدف تحديد القواعد والقوانين التي بني عليها وفق مرتكزات نظرية وأسس إجرائية محددة، من بينها ما وسم بـ"التداخل النصي"، وبما أن الباحث في مجال اللغويات الحديثة والنقد المعاصر وفق مناهج أكاديمية مدرك لهذه الحقائق العلمية، فإنّ ذلك قد يحيله إلى حيثيات الدرس البلاغي وقضايا النقد الأدبي في التراث العربي.

و في محاولة للكشف عن هذا التقاطع الفكري بين الأمم كان لابد من الإجابة عن الإشكال الآتي: إذا كان للتداخل النصي دلائل في التراث العربي، فإلى أيّ مدى يمكن تحديد القواسم المشتركة فيما بينهما؟

Résumé:

La naissance de méthodes analytiques contemporains comme l'évolution de la science dans le domaine des études linguistiques et littéraires, et parmi ces approches « la méthode linguistique » est une méthode pour traiter avec des textes de discours littéraire à linguistique, tout qui débute dans le processus d'analyse de l'idée de base de ce texte étudié, mais analyse pour lui-même et pour elle-même, afin de déterminer les règles et les lois sur lesquelles elle est en accord avec les fondements de la théorie et des motifs de procédure précises, y compris le marquage "d'intertextualité", et en tant que chercheur dans le domaine de la linguistique et de la critique moderne de contemporain selon le programme d'études est au courant de ces faits scientifique, il peut saisir le bien-fondé de la leçon et les questions rhétoriques de la critique littéraire dans le patrimoine arabe .

Dans une tentative de détecter cette intersection entre Nations intellectuelle devait être répondu à propos de la confusion qui suit: Si les signes d'intertextualité dans le patrimoine arabe, dans quelle mesure peut déterminer les points communs entre eux?

إذا كان الناقد الروسي "باختين" (Bakhtin) أول من أشار إلى مدلول "التداخل النصّي" ولكن بمصطلح مغاير هو "الحوارية" (Dialogism)، حوار بين النص وكاتبه وما يحمله هذا الأخير من خبرات سابقة، كما أنه حوار بين النص ومتلقيه وما يملكه هذا المتلقي من معلومات سالفة، فإن الناقدة البلغارية "جوليا كريستيفا" (Julia Kristeva) هي أول من استخدم مصطلح "التداخل النصّي" (Intertextualité) في مقابل هذا المفهوم¹؛ وهو مفهوم يحيل إلى تجمع العديد من النصوص؛ لأن الكاتب في أصله قارئ ظل يمارس فعل القراءة، فذاكرته تخزن ما لا يحصى ولا يعدّ من النصوص والأفكار التي تدل على اتساع آفاقه وخلفياته التاريخية والثقافية التي يستحضرها في كل قراءة محاولاً تسخيرها في انفتاح الدلالة².

ويأتي بعد "كريستيفا" الناقد الفرنسي "رولان بارت" (Roland Barthes) ليتحدث عن التداخل النصّي بوعي أكثر، حيث رأى أن كل نص هو تناس، وأن النصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة، ومن خلال هذه النصوص تدرك الثقافة السالفة والحالية، فالنص ليس إلا نسيجاً جديداً من استشهادات سابقة³، وبالتالي فإن "بارت" قد وسع من مفهوم التداخل النصّي وأكسبه دلالة شاملة، باعتباره أحد النقاد المتأخرين الذين لا ينكرون تصادم الحضارات وانفتاح الثقافات، فالتداخل النصّي بالنسبة له تفاعل، وتبادل، واتحاد، وحوار بين نصين أو عدة نصوص تتصارع فيما بينها ليبطل أحدهما مفعول الآخر، فهو يدرك أن النصوص الأدبية إنما بنيت على أساس هذه التقنية لأنها تجمع أكثر من صوت وأكثر من ثقافة داخلها⁴.

وإذا كان "باختين" هو أول من أشار إلى مفهوم التداخل النصّي، وإذا كانت "جوليا كريستيفا" هي من وضعت مصطلح التداخل النصّي، وإذا كان "رولان بارت" هو من وسع مفهوم هذا المصطلح، فإن الناقد الفرنسي "جيرار جينيت" (Gerard Genette) هو الذي أشبع مفهوم هذا المصطلح بحثاً، حيث لم يتوقف عند الحدود التي رسمها سابقوه، بل تجاوزها إلى البحث فيما أسماه بـ"التعالّي النصّي" (Transtextualité)؛ فهو كل ما يضع النص في علاقة ظاهرة أو سرّية مع نصوص أخرى⁵، وبمعنى آخر هو كل ما يجعل نصاً ما يتعالق مع نصوص أخرى بشكل مباشر أو ضمنى⁶.

بناء على هذا المدخل التاريخي يتّضح أن مصطلح التداخل النصّي قد مرّ بثلاث مراحل تأسيسية هي:

أ- مرحلة الميلاد على يد الناقد الروسي "باختين".

ب- مرحلة التقعيد والتنظير على يد كل من الناقدة البلغارية "جوليا كريستيفا"، والناقد الفرنسي "رولان بارت".

ج- مرحلة التطور والتجدد على يد الناقد الفرنسي "جيرار جينيت".

وحتى نقارب مفهوم التداخل النصّي بشكل عام نتوسل ذلك من مفهوم النص على مستوى الاصطلاح، حيث عرفه أحد النقاد بأنه إظهار الشكل الصوتي المسموع من الكلام أو الشكل المرئي منه عندما يترجم إلى المكتوب⁷، ولا يتحقق ذلك حسب "روبرت دي بو جراند" (Robert De Beau)

(Grande) إلا وفق معايير جعلت أساسا مشروطا لإيجاد النصوص، ومن خلالها يمكن التفريق بين ما يعد وما لا يعد من قبيل النصوص، وهذه المعايير هي⁸:
السبك (Cohesion)، والحبك (Coherence)، والقصد (Intentionality)، والقبول (Acceptability)، ورعاية الموقف (Situationality)، والتداخل النصّي (Intertextuality)، والإعلامية (Informativity).
إن من بين المعايير المقررة سلفا معيار تحدّه أبعاد نفسية وضوابط إيديولوجية يسمى "التداخل النصّي"، فما التداخل النصّي؟

"التداخل النصّي" مصطلح نقدي معاصر يقتضي أن العمل الأدبي إنما يدرك في ظل علاقاته بالأعمال الأدبية الأخرى، فالأدب ينمو في عالم مليء بكلمات الآخرين ولا يتعدى كونه مجموعة من نصوص سابقة ومعاصرة أعيدت صياغتها بشكل جديد؛ لأن الكاتب بمجرد إصدار نصه يدخل في عمليات تناص متعددة ومختلفة، ويظل النص بذلك فاعلا ومنفعلا، مؤثرا ومتأثرا، إلى أن تصبح عملية إنتاج النص الحاضر/المائل عملية تشترك فيها النصوص الغائبة، وبهذا التفاعل يولد نص جديد يشكل في الوقت نفسه تناصا مع مكونات الثقافة والقارئ⁹، ويحيل هذا إلى أن الأديب إنما يلجأ إلى هذه التقنية إمّا بغير وعي لكونه يبدع أساسا من خلفية فكرية مترسبة أو مكتسبة، وإما بوعي لهدف مقصود هو نقل المفاهيم والأفكار للقراء بطريقة جمالية تعتمد الإيحاء والغموض بغية استقصاء المعنى المقصود الذي يتزايد ويتعدد بفعل ذلك الانتقال التناصي، هذا الانتقال الذي يتحول على ضوئه النص إلى بنية متقاطعة مع مختلف النصوص السابقة أو المعاصرة لها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة يعكسها مستوى التأثير والتأثر¹⁰، ولا يمكن أن يردّ مستوى هذا التأثير والتأثر إلا إلى الجانب النفسي للذات المبدعة التي تتأثر بخبرات الأسلاف وآثارهم؛ لأن هذه الخبرات المشتركة بين البشر هي مصدر الفن بالنسبة لأعمال أدبية هي سليله آثار تاريخية ونفسية ولغوية، وفي ظلها تتحدد قيمتها الفنية¹¹.

بناء عليه يمكن تحديد معالم الالتقاء بين مصطلحات التداخل النصّي وأطروحات التراث العربي من مباحث بلاغية وقضايا نقدية وفق الآتي ذكره:

I / مصطلحات التداخل النصّي ومباحث البلاغة العربية:

إن عقد مقارنة انطلاقا من أسس نظرية تتحقق على مستوى بعض المباحث البلاغية والتي تتقاطع - إلى حد ما - مع مفاهيم المتفاعلات النصية، تقتضي التقابل الآتي:

1- المتفاعلات التاريخية والتلميح: إذا كانت المتفاعلات التاريخية مصطلحا نقديا معاصرا يمتد مفهومه إما إلى آثار التاريخ السحيق، من خلال الإشارة إلى وقائع أو أحداث أو شخصيات لها بعد زمني فعلي، أو إلى التداخل مع الواقع الذي كتب فيه النص زمنيا؛ أي أنّ أحداث النص الأدبي تزامن الأحداث الواقعية الحاضرة وتحاكيها بطريقة فنية¹²، فإن التلميح في البلاغة العربية هو الإشارة إلى قصة تاريخية معلومة أو مثل سائر من غير ذكره¹³.

2- **المتفاعلات الدبئية والاقْتباس:** وبما أن هذه المتفاعلات تتجلى في المرجعية الدينية للأديب فيما إذا كان أساسها القرآن الكريم أو الكتاب المقدس ونحوهما، إذ يتم ذلك من خلال توظيف متنها توظيفاً فنياً¹⁴، فإن الاقتباس البلاغي هو أن يضمن الأديب منثوره أو منظومه شيئاً من القرآن أو الحديث - على سبيل المثال - على وجه لا يبدو بأنه منهما¹⁵.

3- **المتفاعلات الأدبية:** إن المتفاعلات الأدبية تضم كل البنيات المتصلة بالأدب في جانبه الشفوي أو الكتابي، وما يندرج ضمنها من شعر ونثر، سواء أكان واقعياً أم متخيلاً، وعليه اعتبر فن الأساطير والمأثور الشعبي مندرجا ضمن هذا المتفاعل النصي على اعتبار أن هذا الشق من المتفاعلات يحيل إلى كل قديم وسابق، في مقابل شق ثان تحيل إليه نصوص شعرية أو نثرية لأدباء معاصرين لصاحب النص الحاضر¹⁶، وهذا المفهوم النقدي المعاصر يتقاطع مع ثلاثة معالم في البلاغة العربية هي¹⁷:

أ- **التضمين:** بما أنه يتحقق حين يضمن الأديب أثره الإبداعي شعراً من شعر الغير مع التنبية عليه إن لم يكن مشهوراً لدى النقاد.

ب- **العقد:** وذلك بما أنه نظم النثر مطلقاً، إذ من شروطه أن يؤخذ المنثور بجملة لفظه أو بمعظمه، فيزيد الناظم فيه وينقص ليدخل في وزن الشعر.

ج- **الحل:** حيث إنه عكس "العقد"؛ ما يعني أن يتم على يد أحد المبدعين نثر نظم معين.

II / مصطلحات التداخل النصّي وقضايا النقد الأدبي:

"السرقعة" في اللغة هي أخذ الشيء من الغير على وجه الخفية¹⁸، وفي اصطلاح نقاد الأدب هي أن يأخذ الشخص كلام الغير وينسبه لنفسه، ويكون ذلك على ثلاثة أوجه هي "النسخ" و"المسخ" و"السلخ"¹⁹، وهي أوجه تتوافق مع أشكال التداخل النصي فتستدعي المقارنة الآتية:

1- **النسخ (الانتحال) والتداخل الاجتراري:** من المعلوم أن "النسخ" في النقد الأدبي هو أن يأخذ الأديب اللفظ والمعنى معاً، بلا تغيير أو تبديل، أو بتبديل الألفاظ كلها أو بعضها بمرادفها²⁰، فهو مفهوم جامع لمعان تدل على تزييف الحقيقة وتزويرها²¹، وفي مقابل هذا المفهوم النقدي القديم يأتي مفهوم "التداخل الاجتراري" بما أنه مصطلح إجرائي معاصر يقتضي أن يستمد الأديب مادته من عصور سابقة، ويتعامل مع النص الغائب بوعي سكوني، وسبب ذلك أن الأديب يقدر النص الغائب على اعتبار أنه الخلفية الفكرية التي يعتمد عليها في عملية الإبداع²².

2- **المسخ (الإغارة) والتداخل الامتصاصي:** يقتصر مفهوم "المسخ" في النقد الأدبي على أخذ الأديب بعض اللفظ، أو تغيير بعض النظم فقط²³، وهذا ما يوافق مفهوم التداخل الامتصاصي في النقد المعاصر بما أنه أعلى درجة من التداخل الاجتراري، إذ فيه ينطلق الأديب أساساً من إقراره بأهمية النص المستحضر ووعيه بحاجة النص الأصل إليه، مما يجعله يتعامل مع النص بأسلوب وطريقة لا ينفيان الأصل، بل يسهمان في استمراره كجوهر قابل للتجدد، وبالتالي فإن هذا الشكل يتحقق فيه نوع من الإبداع²⁴.

3- السّـلخ (الإلام) والتداخل الحواري: يرى نقاد الأدب العربي القديم أن مفهوم "السّـلخ" يتحقق فقط عند أخذ الأديب المعنى وحده²⁵، وبالتالي فإن ما يحدث في هذا المستوى لا يمكن أن يكون إلاّ إبداعاً فنياً يختلف عن سابقه ويحيل إلى مفهوم التداخل الحواري بما أن هذا الأخير أعلى درجة من أشكال التداخل النصي المذكورة سلفاً، حيث يقوم على تحطيم مظاهر الاستلاب مهما كان نوعها وشكلها وحجمها، فالأديب لا يقدر أيّ نص، بل يتعامل مع النصوص من خلال التحوير والتعديل والتغيير، ويعتمد في ذلك على القراءة الواعية المعمّقة التي تربط النص الحاضر ببنيات نصوص غائبة معاصرة أو تراثية، إذ تتفاعل فيه هذه النصوص فيما بينها على ضوء قوانين الوعي واللاوعي²⁶.

إن هذه العلاقات التواصلية القائمة بين النصوص بمختلف أنماطها قد لفتت انتباه الكثير من الدارسين العرب، ولا يقتصر ذلك على المحدثين وإنما يتعداه إلى القدماء والأولين²⁷، فتداخل النصوص أو تعالقها، تكثيفها أو تحاورها في بناء رسوبي باعتبارها آلية نقدية لم يكن غائباً عن الوعي الإبداعي في بواكير الإبداع الأدبي، وذلك بنصوص صريحة يؤكد فيها أصحابها إدراكهم لهذه السمة التي يتميز بها بناء الشعر على وجه الخصوص، ومما قالوا: «ما أَرانا نقول إلاّ معاراً أو معاداً من لفظنا مكروراً»، وهذا يعني أنّ ثمة إحساساً عاماً لديهم بسلطة النصوص القديمة - السابقة - على النص الحاضر أو الجديد²⁸، ومثال ذلك أن من شروط تعلم نظم الشعر عند العرب، أن يطلب من الشاعر في مرحلة التلقي أن يحفظ كثيراً من أشعار غيره، ثم يطلب منه أن ينساها في مرحلة العطاء الشعري، لتدخل محفوظاته هذه في نسيج عطائه، ولكن في شكل جديد، وهكذا يغدّي اللاوعي الباطن والمتماهي في الذات المبدعة الوعي الفني الظاهر²⁹.

إلاّ أن المفاهيم ذاتها وإن اختلفت مصطلحاتها لدى المعاصرين من الأدباء والنقاد العرب لم تعد مقصورة على أشكال الاسترفاد المتعددة، فالمبدع وبوعي منه أو بدون وعي، أصبح يمتلك الحرية في إعادة بناء نصه الإبداعي دون الإحساس بمطاردة خجله من بروز الآخر ومزاحمته لصوته الخاص³⁰.

وفي الأخير، وبهذا التفاعل الفني على مستوى مبحث من مباحث البلاغة العربية، وقضية من قضايا النقد الأدبي القديم يتحول النص الأوّل (المتفاعل النصي) سواء أ كان نصاً تاريخياً - ماضياً أو حاضراً، أم أدبياً - قديماً أو حديثاً -، أم دينياً إلى نص جديد لا صلة له بالسابق، كما لا يمكن أن يربط فيما بينهما سوى ثقافة المبدعين، ووعي القراء بأبعاد الإبداع وتقنيات المناهج التحليلية المعاصرة، وفي طليعتها أشكال التداخل النصي.

أيضاً، يتّضح أنّ المقارنة المعقودة بين معالم التراث العربي وما يتوافق معها من مصطلحات التداخل النصي باعتبارها مفاهيم نقدية معاصرة في مجال التحليل المنهجي أسهمت في بيان قاسم مشترك بينهما، ألا وهو أداء الوظيفة النقدية الوصفية لا المعيارية، وذلك أن كلا الدارسين العربي والغربي يؤسس لمستوى إجرائي لا يتم من خلاله الحكم على العمل الأدبي من حيث الجودة والرداءة، وإنما يحكم عليه في هذا المستوى من حيث درجة التأثير بما هو موجود.

- ¹ - محمد عزّام، النص الغائب - تجليات التناص في الشعر العربي -، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 2001 م، ص 36.
- ² - بشير تاوريريت، سامية راجح، التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر - دراسة في الأصول والملاحم والإشكالات النظرية والتطبيقية -، دار الفجر للنشر، الجزائر، ط1، 2006 م، ص 61.
- ³ - محمد عزّام، النص الغائب - تجليات التناص في الشعر العربي -، ص 28، 31.
- ⁴ - بشير تاوريريت، سامية راجح، التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر - دراسة في الأصول والملاحم والإشكالات النظرية والتطبيقية -، ص 61، 62.
- ⁵ - بشير تاوريريت، محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر - دراسة في الأصول والملاحم والإشكالات النظرية والتطبيقية -، دار الفجر للنشر، الجزائر، ط1، 2006 م، ص 132، 133.
- ⁶ - سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي - النص والسياق -، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2001 م، ص 96، 97.
- ⁷ - الأزهر الزناد، نسيج النص - بحث فيما يكون به الملفوظ نصا -، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، د.ط، 1991 م، ص 12.
- ⁸ - ينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 1998 م، ص 103 - 106.
- ⁹ - محمد عزّام، النص الغائب - تجليات التناص في الشعر العربي -، ص 9، 10.
- ¹⁰ - بشير تاوريريت، سامية راجح، التفكيكية في الخطاب النقدي المعاصر - دراسة في الأصول والملاحم والإشكالات النظرية والتطبيقية -، ص 62.
- ¹¹ - أحمد مداس، الخطاب الشعري في منظور اللسانيات النصية - دراسة تطبيقية لقصيدتي (المساء) "إيليا أبي ماضي" و(قارئة الفجان) "النزار قباني" -، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الأدب العربي، 2003/2004 م، ص 56.
- ¹² - سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي - النص والسياق -، ص 106، 107؛ محمد عزّام، النص الغائب - تجليات التناص في الشعر العربي -، ص 52.
- ¹³ - أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، الدار النموذجية المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 2000 م، ص 342.
- ¹⁴ - سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي - النص والسياق -، ص 106، 107؛ محمد عزّام، النص الغائب - تجليات التناص في الشعر العربي -، ص 52.
- ¹⁵ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تقديم وتبويب وشرح: علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د.ط، 2000 م، ص 342.
- ¹⁶ - سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي - النص والسياق -، ص 106، 107؛ محمد عزّام، النص الغائب - تجليات التناص في الشعر العربي -، ص 52.
- ¹⁷ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 344 - 347؛ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص 340 - 342.

- 18- الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، د. تح، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2005 م، ص85.
- 19- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ص337.
- 20- نفسه، ص نفسها.
- 21- داود غطاشة، حسين راضي، قضايا النقد العربي قديمها وحديثها، الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2000 م، ص6.
- 22- محمد عزّام، النص الغائب - تجليات التناص في الشعر العربي -، ص53.
- 23- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص334.
- 24- فوزية دندوقة، الجملة في شعر يوسف وغيلسي - دراسة نحوية أسلوبية -، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الأدب العربي، 2004/2003 م، ص194.
- 25- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص336؛ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، صحح أصله: محمد عبده، محمد محمود التركي الشنقيطي، علق عليه: محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 2001 م، ص300، 301.
- 26- فوزية دندوقة، الجملة في شعر يوسف وغيلسي - دراسة نحوية أسلوبية -، ص194؛ محمد عزّام، النص الغائب - تجليات التناص في الشعر العربي -، ص53.
- 27- دليلة مكسح، المرجعيات الفكرية والدينية في شعر ياسين بن عبيد، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الأدب العربي، 2007/2006 م، ص147.
- 28- مصطفى السعدني، كتب الأدب والنقد في التناص الشعري، دار المعارف للنشر، الإسكندرية، مصر، د.ط، 2005 م، ص277.
- 29- محمد عزّام، النص الغائب - تجليات التناص في الشعر العربي -، ص9، 40.
- 30- مصطفى السعدني، كتب الأدب والنقد في التناص الشعري، ص277، 278.